القصص

قصة شامية سيفية

المجنـــونة

للاستاذ على الطنطاوى

قالت ربة المنزل ، وقد حف بها اولادها واحفادها ، وجلسنا نحن على مقعدين نصبوهما لنا فى صدر الغرفة :

اصغوا الى فانى قاصة عليكم الليلة قصة واقعة . شاهدت حوادثها بعينى رأسى . ولا يزال أشخاصها احياء يرزقون ، وليس كل ما تمتاز به انها واقعة ، ففى الواقع كثير من التوافه ، ولكنها تمتاز بأنها مؤثرة وان فيها عبرة .

***

كنت صغيرة . لا أكاد أدرك ...

— إذن فالقصة منذ ستين سنة على الاقل !

فرمت المرأة صديقى بنظرة تأنيب على هذه الاهانة التى تلقاها

على أن هذه اختلالات لا تؤثر فى حوائج العلم العادية ، ومطالب الحياة الجارية ، فعين الانسان قاصرة ، ترى الكون كتلا كبيرة ولو ظنتها جسيمات صغيرة ، ويده تحس الكون كذلك كتلا ، وأنفه يشم الكون اجمالا لا تفصيلا ، وأذنه تسمع انغامه وتظن انها تستطيع ادراكها نغمة نغمة ، ولو ان كل نغمة منها أنغام تحتوى أنغاما . وهو مستمتع فى كل هذا بقصور حواسه ، قانع برؤية الوجود غبشا وضبابا ، مادام لا يحس أنه غبش وضباب ، فلنفس ما كان من تحقيق العلماء وتدقيقهم ، ولنشربه زلالا سائغا خفيفه وثقيله ، وعلى الدنيا وعلى العلماء العفاء .

أحمد زكى

بها ، واستمرت فى حديثها :

... كنت بنت سبع سنين يوم دخل « رظا » افندى البلد . وإنى لأذكر ذلك بوضوح على رغم طفولتى وقدم العهد ... لأن بلدنا كان يومئذ معتزل العالم ، وكان مرور الجند فى البلد . أو زيارة غريب أو سفر أحد الفلاحين الى دمشق . يعد حادثا تاريخياً يلهج به الفلاحون شهورا . ويتخذون منه مادة لاحاديثهم فى أسمارهم ، وكان اليوم جمعة فلم يرع الناس وهم منصرفون من الصلاة الا شبح شخص يلوح فى الحرة (١) المحيطة بالبلد ، ثم يبدو واضحا واذا هو رجل طوال منحن يمسك بيمناه عصا طويلة قد علق بها صرة كبيرة ، ويجر بيسراه طفلة له ، وكانا يجدان عناء فى تسلق هذه الصخور والقفز على هذه الاحجار السوداء الحديدة الجوانب ، حتى أن الطفلة سقطت أكثر من مرة . فكان الرجل يقيلها ، ويصب فى أذنها كلمات حلوة معسولة ، ويشير لها الى البلد ، فتعاود المسير يحفزها أمل بارق ، فى ظلام من اليأس

تجمع الناس فى رحبة البلد ، ينظرون اليهما ، وتطوع فريق منهم للاخذ بايديهما ومساعدتهما ، وأخذ رجل حماره ليركبهما ، وعمد آخر الى شىء من الخبز والجبن وقرص الدين فاخذه اليهما زاعما انهما قد حطمهما الجوع ، وحملت امرأة جرة ماء مؤكدة أن ليس بهما جوع ولا تعب ، ولكن الضرب فى هذه الحرة المحرقة ثلاث ساعات من الكسوة الى زاكية ، ثلاث ساعات فى هذه الظهيرة اللاذعة قد قتلهما عطشا

ولم تشأ المحدثة أن تفلت هذه المناسبة دون ان تعظ اولادها وتصف لهم جلال الاخلاق الماضية وجمالها فقطعت قصتها وقالت:

— أرأيتم ؟ هكذا كان الناس : يساعدون الغريب ويواسونه بنفوسهم ، لا كما تصنعون انتم اليوم

— فقلت : ولكن الرجل ؟ هل أكل ما حملوا اليه من طعام ؟

— قالت : كلا ، كان مريضا فلم يأكل شيئا . أما البنت فقد كانت ساغبة لاغبة ، فأكلت وشربت ثم نامت مكانها من التعب .

---

(١) الحرة ارض ذات حجارة سوداء بركانية وقرية زاكية الحورانية التى تحدث عنها فى وسط حرة

حملوا الرجل وابنته الى دار الشيخ ، وكان المرض والضعف قد بلغا بالرجل . فارادوه على الطعام ليشتد أزره فأبى . فعرضوا عليه الدواء الذى يتخذونه لمثل علته فرفض ايضا : — لااريد . لااريد شيئا . لاتفكروا بى . انى ميت . قد انتهيت ، ولكنى موصيكم بهذه الطفلة فهى أمانة فى اعناقكم . . لقد غالبت الموت حتى بلغت بها هذه القرية ، قد حملتها فوق ما يطيقه انسان ، لقد جابت معى البلاد كلها من القسطنطينية إلى هنا ، من القسطنطينية الى زاكية فى ست سنين لم نذق فيها ليلة هناء واحدة .

وأطبق عينيه وفمه . وسكت ، وحاولوا ان يفهموا منه شيئا آخر فلم ينبس . واعترته حال غريبة لم أكن أعرف يومئذ ما هى ، ولكنى فهمت منها ، ومن صوت الرجل الذى خرج خافتا رهيبا كأنه خارج من قبر ، ومن وجهه الشاحب المخيف ، وأنفاسه المتقطعة ولهجته الغريبة ، إنه ليس كمن أرى من رجال ، وإن له لشأنا . . ولكنى لم أستطع البقاء أكثر مما بقيت فعدت الى الدار كيلا تضربنى أمى

وفى الصباح سمعت أن الغريب قد مات — مات ليلة قدومه كأنما قد طوف فى بلاد الله هذا التطواف لينام الى الابد على هذه الحجارة السوداء ، ويستمتع بحلم طويل إثر رحلة شاقة !

*

بقيت الطفلة وحيدة فكفلتها زوجة شتيوى ، وكان شتيوى من شيوخ البدو المقيمين فى هذا البلد . وكان غنيا موسراً ، ولكن زوجه عاقر لم تأنه بولد طيب صالح يعلمه الفروسية والرمى ، ويستخلفه فى أهله وماله ، على الرغم من أنها راجعت الاطباء والمنجمين والمشايخ والمشعوذين فى دمشق وفى قطنا ، واصطنعت عشرات الادوية والتمائم فلم ينفعها ذلك كله فتيلا . فيئست ... ولما كفلوها هذه الطفلة تلقتها بسرور . واتخذتها ابنة لها ...

كانت الطفلة فى التاسعة من عمرها يوم مات ابوها . فلم تلبث فى بيت شتيوى سنين حتى نمت واكتملت ، وغدت أجمل فتاة فى البلد ، ولكنها كانت غريبة عن نساء البلدة فهى شقراء ، لها عينان زرقاوان ، وجسم متناسق جميل ، كأنما هى احدى الفتيات اليونانيات اللاتى عرفناهن فى حى المهاجرين فى دمشق

— بل كأنما هى ديان ، غادية الى الصيد !

— وكانت تجول كل يوم فى هذه الصخور ، لا كما يجول نساء دمشق اذ يمشين متباطئات متكاسلات نصف ساعة فى طريق المنشية ، أو فى شارع بغداد ، ثم يعدن فى عربة ، بل كما يجول الراعى النشيط ساعتين او ثلاثا تقفز فيها كما يقفز الغزال الشارد ، كأن لها خفته وملاحته .

وكانت غريبة فى طباعها وأخلاقها ، كما كانت غريبة فى شكلها وصورتها ، فلما اكتملت انوثتها وتفتحت زهرة الحب فى قلبها ، لم تجد لها قاطفا ، إذ لم يكن فى الناس من يجرؤ على الزواج بفتاة لقيطة لاتعرف اسرتها ولايعلم نسبها ، فضلا عن انها تقرأ ، وانها قد قرأت كل ما كان مع أبيها من كتب وحفظت ما فيها من كفر وترهات

* * *

كانت الفتاة تعود الى البيت حينما تعود الشمس الى خدرها ، فتملأ البيت طربا ومرحا ، فلما كان ذلك اليوم الذى قلب عليها حياتها ، لم تعد الا فى ظلمة الليل ، وكانت تهبط الصخر بحذر تحمل شيئا ثقيلا حتى بلغت الدار فولجتها وقد انهكها التعب ، ولكنها كانت هاشة باشة ككل فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، فوضعت حملها برفق على احدى الارائك ، وقالت لأمها فى مذاجة :

— هاك زوجى ! وجدته طريحاً عند الصخرة الشرقية . وقد أغمى عليه من هذا الجرح ، ستعنين به أجمل عناية حتى اذا ماشفى تزوج بى .. أليس كذلك ؟

فهزت المرأة رأسها وقد حدثها قلبها وقلب المرأة (ترمومتر) الحياة — بكارثة ، ولكنها لم تجد مجالا للقول فانصرفت الى العناية بالجريح . وكان ضابطاً ألمانيا جميلا قد خرقت صخرة قذاله وشجته شجاً عميقا . ودعت المرأة زوجها فشرع يعالجه بالبلسم والحراقة وما اليها من الطرق البدوية التى قلما تخطىء فى مثل هذه الحالات . والفتاة متعلقة به تسأله عن مبلغ الأمل فى شفائه ، وترجوه ألا يدخر وسعاً فى معالجته ، لانها تود شفاءه ليكون لها زوجاً ، ولما تمت العملية ألقت المريض على سريرها . والحت على الرجل وزوجه أن يدعا خدمته لها . ففعلا

جثت أمام السرير كما يجثو العابد فى صلاته . وراحت تتأمل وجهه وعينيه المغمضتين فى ذهول عميق ونشوة غريبة . وتجرؤ أحيانا على مس شعره الأشقر المتهدل على العصابة مساً رفيقاً ، كما يمس المرء شيئا يقدسه ويخشاه ثم تقبض يدها فى سرعة ..

— نديدة ! نديدة !

— نعم يابابا

— ألم تنامى بعد ؟ دعى المريض فانه لن يفيق من غيبوبته قبل الصباح

— نعم . سأنام

ولكنها لبثت جاثية أمام السرير

لبث الرجل وزوجه ينصحانها . يحاولان أن ينزعا غرس الحب من قلبها قبل أن يقوى ويشتد ، فكانت تعرض عنهما وتعيد أبدا كلمتها الأولى : هذا هو زوجي

مر على هذه الامسية عشرون يوما لم تفارق فيها الفتاة الضابط ولم تعد تجول كما كانت تجول ولم تعد تفكر في شيء . . . وكان الناس يتساءلون عن صلة هذا الافرنجي الكافر باسرة شتيوى ، فاذا قيل لهم — إنه مريض وإنهم يعالجونه . انصرفوا الى أعمالهم ساخرين .

وصحا الضابط وذكر كيف خرج يتصيد فجره الصيد الى هذه القرية ، وكيف زلت قدمه فوقع من ذروة الصخرة ، وأحس بالدم الحار يسيل على عنقه ، ثم لم يعد يذكر شيئا . . . الا أنه فتح عينيه فوقعتا على عيني فتاة جميلة ، حسبهما في الوهلة الاولى ، عيني زوجته الفاتنتين الزرقاوين ، وأنه وجد نفسه على سرير نظيف محاطا بالعناية والعطف ، وأنه لبث ينظر الى الفتاة في صمت وخشوع وشكران نظرات طويلة ، ثم مد يده الى يدها الرخصة اللينة فاخذها الى فمه ، ليخط عليها أول كلمة من القصيدة التي تضطرم بها نفسه ، قصيدة الشكر للجميل ، والشوق للجمال ، وأن الفتاة لازمته بعد ذلك ملازمة الظل ، وحرصت على سروره وهنائه ، فكانت تحدثه أطيب الاحاديث البدوية وألذها ، فكان يجيبها بعناء ومشقة ، لضيق العربية عليه ، ويعجزه أن يأتي بالكلمة المناسبة فيأتي بها بالالمانية فتفهمها الفتاة وهي لا تعرف من الالمانية كلمة ، كأنما هي في قلبه ، أو كأنما هو — وذلك اصح — في قلبها ، ولكن شيئا من ذلك لم يتجاوز في رأيه صلة المجاملة والمتعة بالجمال

أما الفتاة المتفتحة للحب فقد كانت ترى في هذا كله علامة على الحب الصادق الذي كانت تتوق اليه وتحلم به . وقد ابتغى لها الضابط شتى المعاذير في هذا الموقف حينما أخبره به الشيخ شتيوى ، وأعطاها كل الحق في أن تحب . أما أن تصر على اتخاذه زوجاً لها وهو — الرجل الالماني المتزوج ، وهو الموظف الذي لم يبق من أجازته غير أسبوعين . فأمر مضحك لم يستطع برغم احترامه لشتيوى وشكره إياه إلا أن يتلقاه بقهقهة طويلة مجلجلة .

— ما هي جريرتي اذا هي قد أحبتني ؟ اني لم أشجعها على هذا الحب . ولم أقطع لها أي وعد بالزواج . وما وقفت منها الا موقف الرجل المهذب الشاكر . فقسرت ذلك بأنه الحب

ولكنه تألم إذ يحمل إلى الفتاة التي حملت اليه البر والحب الألم واليأس . وجرب الأعراض والاساءة اليها علها تنساه . وتقطع هذه الصلة بينهما من غير أن تخلف وراءها قلبا داميا . فلم يعد ذلك شيئا ، وازداد حب الفتاة اضطراما . فأزمع السفر مضطراً وأزف الوداع فتعلقت به وأبت أن تفارقه . وأعرضت عن كل نصيحة ، ولم تنفع فيها موعظة ولا زجر . فاقتربت زوجة شتيوى من الضابط وهمست في أذنه كلاما فعاد طلقا مستبشراً . فأمسك بيدي الفتاة بحنو وقال لها :

— سأعود لأرى زوجك . فدعيني أذهب لأعد عدة الزواج . سأعود . . . فتركته الفتاة مصدقة ووقفت على الصخرة التي لقيته عندها تبكي وتشير اليه بمنديلها حتى اختفى . فعادت إلى البيت تقول لأمها :

لقد وعدني أن سيعود . سيتزوجني !

— نعم سيعود !

* * *

مر شهران تصرم فيهما صبر الفتاة . فكانت تمضي نهارها حيال خريطة قديمة كانت بين كتب أبيها تنظر فيها . وتحاول أن تعرف أين تقع ألمانيا من وجه الأرض ، وكم هي المسافة اليها . ولكنها لم تكن تعرف شيئا عن البحار ولا عن الوسائط النقلية . فكانت تصوراتها لا تعدو أن تكون أحلاما مبهمة

وكانت تبكي بكاء خافتا وهي مكبة على الخريطة ، وتستعيد في نفسها صورة الضابط وصوته وحركاته . ثم تعاود البكاء والنشيج ، أما هو فقد نسيها . ولم يذكر اسمها الا مرة واحدة . في كتاب أخرجه عن الشرق .

* * *

وقطعت المرأة حديثها لأن الباب قد انفرج عن عجوز منحنية على عصا طويلة تصرخ صراخا مزعجا . وتهذي بكلمات مبهمة . ووراءها سرب من الصبيان يقرعون بأيديهم الحجارة ويصيحون

مج . . مج . . مجنونة ! مج . . مج . . مجنونة !

فلما نجت منهم ، القت بنفسها على عتبة الباب ، وجلست تبكي بكاء أليما . . .

فهمست في أذن ربة الدار :

— من هذه المجنونة ؟

— إنها صاحبة القصة ياسيدي . . !

دمشق — علي الطنطاوي